

الباب الثاني

حالة مصر قبيل تولية بيبرس سلطنتها

- ١ - انتقال السلطة الى المماليك .
 - ٢ - ظهور بيبرس على مسرح السياسة المصرية .
-

الباب الثاني

حالة مصر قبيل تولية بيهرس سلطنتها

١ - انتقال السلطة الى الماليك

اتفقت كلمة أمراء الماليك البحرية بعد قتل تورانشاه على تولية شجرة الدر مكانه^(١) . فأخذت تقترب من أزباب الدولة وتمنحهم الرتب والاقطاعات كما خفضت الضرائب عن الأهلين لتستميل قلوبهم وساست الرعية أحسن سياسة^(٢) . على أن الناس على الرغم من ذلك قد كرهوا حكمها إذ لم تجر عادة المسلمين بأن يتقلد حكمهم امرأة^(٣) . فخرج أهل سوريا عن طاعتها وبايعوا الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب .

ولما علمت بذلك شجرة الدر آثرت المحافظة على كيان الدولة وأظهرت رغبتها في التخلي عن الحكم . فأشار عليها القضاة والأمراء بأن تتزوج من عز الدين أيك التركاني أتابك العساكر وتفوض إليه أمور الدولة^(٤) ؛ فقبلت ذلك ونزلت عن سلطنة مصر لزوجها بعد أن لبثت في الحكم ثمانين يوما برهنت فيها على كفاءة ممتازة وحكمة نادرة في تصريف الأمور وتدير الملك^(٥) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦١

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٨٩

(٣) لما علم الخليفة المستنصر بالله العباسى بتولية شجرة الدر سلطنة مصر غضب على أهل مصر وكتب إليهم بأن يولوا عليهم رجلا منهم أو يرسل لهم من يصلح للحكم إن لم يوجد بمصر من يصلح له . المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦٨

(٤) Stanley Lane-Poole, a History of Egypt in the Middle Ages p. 250

(٥) ابن إياس : ج ١ ص ٩٠

وقصارى القول فقد كانت شجرة الدر ذات ذكاء وقاد وشجاعة نادرة وشخصية ممتازة قل أن يوجد لها نظير . ولا عجب في هذا فقد حنكتها التجارب من يوم أن اتصلت بزوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وعندما تخلت شجرة الدر عن العرش أقام أمراء المماليك عز الدين أيبك أتابك العسكر ساطانا على مصر ولقبوه بالمعز؛ غير أنهم لم يلبثوا بعد ذلك أن طالبوا بتنصيب أحد أمراء البيت الأيوبي معه في السلطنة واتفقوا على تولية الأشرف مظفر الدين موسى وله من العمر ست سنين^(١) . وقد علل ابن واصل^(٢) رغبة هؤلاء الأمراء في إشراك أحد الأيوبيين مع المعز أيبك إلى أنفتهم من الخضوع له ورغبتهم في التدخل في شئون الدولة .

اتهمز الملك الناصر صاحب الشام فرصة هذا الاضطراب الذى ساد مصر في ذلك الوقت ونخرج بعساكره من دمشق يريد الاستيلاء عليها . فلما ورد الخبر بذلك إلى مصر اضطربت الدولة، وقبض المعز أيبك على جماعة من الأمراء اتهموا بالميل للملك الناصر وأعد العدة لملاقاته حتى قدمت جيوشه إلى مصر واشتبك الفريقان بالقرب من العباسية في معركة هزم فيها المصريون أول الأمر؛ ثم لم يلبثوا بعد ذلك أن هاجموا الناصر وجيشه فولوا منهزمين نحو الشام^(٣) .

ازداد نفوذ المماليك البحرية على أثر هذا الانتصار الذى أحرزه المعز على جيوش الشام بفضل جنودهم الذين أبلوا بلاء حسنا في صد جيوش الناصر؛ فارتكبوا كثيرا من الفظائع مع أهل مصر . وفى ذلك يقول المقرئى^(٤) : "فتزل بالناس من البحرية بلاء لا يوصف ما بين قتل ونهب وسبي بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر

(١) المقرئى : السلوك القسم الثانى ج ١ ص ٣٦٩

(٢) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ١٣٧٦

(٣) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٨٤ — ١٨٥

(٤) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار : ج ٢ ص ٢٣٧

ما زادوا في الفساد على ما فعله البحرية وكان كباراؤهم ثلاثة : الأمير فارس الدين أقطاي ، وركن الدين بيبرس البندقداري ، وسيف الدين بلبان الرشيدى .

لم يكد المعز أيك يفرغ من صد جيوش الناصر عن مصر حتى وصلت إليه الأخبار سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) بأن هولاء كو سار من قره قورم (Karakarum) ومعه تعليمات من أخيه ملك التتار خلاصتها القضاء على الاسماعيلية بفارس وهدم الخلافة العباسية ببغداد^(١) . فانتهمز المعز هذه الفرصة وأزال اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة وقبض عليه وسجنه وانفرد بالسلطة دونه وأرهب الأهلى بجمع الأموال الكثيرة والمكوس التى لم تكن مقررة من قبل وعين الأمير سيف الدين قطر نائبا للسلطنة بمصر ، ثم عقد صلحا مع الملك الناصر يوسف صاحب الشام تقرر فيه أن يكون للمعز إلى نهر الأردن وللك الناصر ما وراء ذلك^(٢) .

ولما اطمأنت نفس المعز أيك من ناحية بلاد الشام شرع فى تهدئة نائرة العرب بالوجه البحرى والصعيد الذين اجتمعوا على شخص من ذرية على بن أبى طالب يسمى حصن الدين بن ثعلب ، فأرسل إليهم الأمير فارس الدين أقطاي وغيره من الأمراء فاقتتل الفريقان بالقرب من بليس وتفوق كثير من العرب عن حصن الدين ، فولى منهزما ، ثم سار الممالك لإخضاع عرب الغربية والمنوفية فهزموهم بناحية سخا وسنهور ولحق الشريف حصن الدين بمن بقى من أصحابه وبعث يطلب الأمان من الملك المعز فأمنه ، غير أن المعز لم يلبث أن نقض الأمان عند ما سار حصن الدين إلى بليس إذ قبض عليه وأرسله إلى الإسكندرية وقتل أتباعه وبذلك تبدد شمل العرب فى مصر^(٣) .

(١) Browne, A Literary History of Persia, Vol. II. pp. 452-453.

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٤ — ٣٨٥

(٣) المقرئى : نفس المرجع ص ٣٨٦ — ٣٨٨

ويرجع سبب هذه الثورة إلى انتشار روح القومية بين العرب المقيمين بمصر الذين يرى كثير منهم أن مصر عربية ديناً ولغة وعادات وأنه لا بد لهم من ملك عربي مستقل يحكمهم ، فغضبت نفوسهم وثارت حميتهم لإمارة الأتراك والمماليك عليهم . وليست هذه الروح جديدة فيهم بل لقد دب ديبها منذ عهد الدولة الطولونية حين قامت الفتن والثورات على أيدي العرب في مصر ضد الطولونيين والأتراك^(١) . لم يبق أمام المعز بعد ذلك إلا منافسه فارس الدين أقطاي وكان قد استفحل أمره في ذلك الوقت ، فرأى أن يتخلص منه ويشتت شمل من معه من الجنود وخاصة بعد أن طلب منه الإقامة بقاعة الجبل ، فاتفق مع طائفة من مماليكه المعزية على قتله إذا مر بهم ، فوثبوا عليه عند باب قاعة الأعمدة (بالقاعة) بسيوفهم فأذاقوه كأس المنون وأغلقت أبواب القلعة وشاع خبر قتله ، فاجتمع أنصاره وأعوانه من المماليك البحرية وأحاطوا بالقلعة فرمى إليهم المعز برأس أقطاي فسقط في أيديهم وانفضوا خائنين وأدركوا أن المكيدة لاحقة بهم ، فاجتمع رؤسائهم بيبرس وقلاوون الألفي وستقر الأشقر والأمير بيسرى وغيرهم وقرروا الخروج إلى البلاد الشامية . وسرعان ما علم المعز بنواياهم فأغلق دونهم أبواب القاهرة ولكنهم أحرقوا باب القراطين^(٢) وخرجوا منه هاربين صوب مقصدهم واختفى غيرهم ممن لم يسايروهم . ولما تشتت شملهم استصفى المعز أملاكهم واسترد ما كان لديهم من الأموال والذخائر وأعاد ما أخذه أقطاي إلى بيت المال وأضاف أعمال الاسكندرية إلى أعمال السلطان وبذلك صفاه له الجوّ وانفرد بتدبير المملكة^(٣)

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages. (١)
pp. 259, 261-262

(٢) كان المعز قد أهمل جانب المماليك البحرية واتخذ له ممالك غيرهم سموا بالمماليك المعزية .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٩ — ٣٩٠ . (٤) عرف هذا

الباب بعد ذلك بالباب المحروق وهو باب القاهرة الشرقى Lane-Poole : Cairo, p. 129.

(٥) ابن خلدون : ج ٥ ص ٣٧٥ و ٣٧٦ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى

خرج بيبرس ومعه أمراء المماليك قاصدين الشام ولما وصلوا غزة كاتبوا
الناصر يوسف صاحب حلب يستأذنه في القدوم عليه فأذن لهم^(١) وعند ما وصلوا
إليه قابلهم بالترحاب وأكرم وفادتهم وشملهم بعطفه ولين جانبه وأقطعهم البلاد
الساحلية . ولما استقروا لديه أغروه بحاربة مصر والاستيلاء عليها ؛ فصادف
كلامهم هوى في نفسه فبادر بتجهيز جيش إلى القاهرة ؛ وسرعان ما أعد سلطان
مصر جيشه أيضا وغادر المدينة ليقطع الطريق على الجنود الشامية ويقاثلهم قبل أن
يدخلوا بلاده .

التقى الجيشان عند قرية العباسية ولم يحجر بينهما قتال ، بل دارت المفاوضات
وتم الأمر بالصالح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب
(أى ساحل الشام ومصر) وعلى ألا يؤذى الملك الناصر أحدا من المماليك البحرية^(٢)
وعاد كل إلى بلده سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) .

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن المعز أيبك بعد انفراده بالسلطنة فلت زوجه شجرة
الدر من شوكتة ، ووقع بينهما التشاحن والتباغض وأثار غضبها ما كان من خطبته
من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ؛ فعملت على اغتياله وأرسلت إليه توهم
أنها باقية على طاعته وقد رجعت عما كان يلاحظ عليها من غطرسة وشدة . وكانت
قد أعدت خمسة من الخدام وأمرتهم بقتله إذا ما أمكنتهم الفرص ؛ فقام هؤلاء
الخدام بما أمروا به وقتلوه داخل الحمام (ربيع الأول سنة ٦٥٦ هـ) وأشاعوا أنه قد
أغشى عليه . وفي الصباح أذيع قتله بين الناس فدفنه آسنه على وماليكه ثم قبضوا على
شجرة الدر وسلموها إلى الجوارى فضربنها بالنعال حتى ماتت في ربيع الثاني من هذه
السنة وألقيت جثتها في أحد الخنادق ثلاثة أيام ثم دفنت بتربتها المعروفة باسمها
اليوم .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٢ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٨ .

ولى الأمراء مكان المعز أيك ابنه عليا وعمره خمس عشرة سنة وكان القائم بتدبير المملكة اذ ذاك علم الدين سنجر الحلبي والوزير شرف الدين بن صاعد الفائزى . فلما تم الأمر نعلي بن أيك الملقب بالملك المنصور نور الدين ولى سيف الدين قطز^(١) نيابة السلطنة بمصر وقبض على وزيره شرف الدين واستولى على أمواله ، ثم ولى فارس الدين أقطاي المستعرب أتابكية العسكر بدلا من علم الدين سنجر .

استمر قطز في النيابة لابن أيك وتولى قيادة الجيش لصدد المماليك البحرية والمغيث على ما سيأتى — وكانوا قد حسنوا للمغيث أخذها لما علموا أن التتار على وشك مهاجمتها بعد استلائهم على الشام . وفى عهد على هذا كانت إغارة التتار على البلاد الشامية بعد أن دمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم واستولوا على حلب وغيرها من البلدان^(٢) .

لم يرض المماليك البحرية بهذا الصلح الذى عقد بين الملك الناصر والمعز أيك ، ونمى الى الناصر أنهم يريدون الفتك به فأجلاهم الى غزوة ؛ وهناك كتبوا بالطاعة الى الملك المغيث صاحب الكرك ، فأرسل اليهم الناصر عسكريا لمقاتلتهم فانتصر عليهم المماليك البحرية وهزمهم ، ثم أعاد عسكري الناصر الكرة فانتصروا وطردها البحرية الى البلقاء^(٣) ملتجئين الى المغيث فأنفق عليهم أموالا ضخمة وأطعموه هو أيضا فى ملك مصر فجهازهم بالعدد والعدد^(٤) ، وساروا متجهين الى مصر وخرج الجيش المصرى يقوده سيف الدين قطز ، والتقى الفريقان بالصالحية فانهمز المماليك البحرية ومن معهم وأسر منهم قلاوون الصالحى وبلبان الرشيدى وغيرهما ، ثم أطلق سراح قلاوون بعد أيام ولحق بأصحابه بالكرك^(٥) .

(١) كان قطز من أولاد الملوك الخوارزمية . يقال انه ابن أخت خوارزم شاه واسمه محمود بن مودود وقد أسرى فى حروب التتار وبيع بدمشق للمعز أيك . ابن خلدون ج ٥ ص ٣٧٩ . In ac. Isl.

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٩٤ (٣) كورة من أعمال Kutns, s.v.

دمشق . ياقوت : معجم البلدان . (٤) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٩٢ و ١٩٣

(٥) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٠٦

أما عن موقف الملك الناصر في ذلك الوقت فانه أنفذ ابنه الملك العزيز الى هولاء كويطلب منه النجدة للاستيلاء على مصر من المماليك، فأجابه هولاء كوي الى ما طلب . غير أن المماليك البحرية الذين كانوا بدمشق في ذلك الوقت لما سمعوا بذلك ساروا الى الملك المغيث بالكرك وحلبوا اليه أخذ مصر، فسار في عساكره سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وقدم اليه بعض الأمراء الذين كاتبوه من مصر وتقدم اليهم قطز في عسكر مصر والتقى بهم فهزمهم وفتر المغيث الى الكرك^(١) . أما المماليك البحرية فانهم ذهبوا الى الطور واجتمعوا بمن هناك من الأكراد الفارين من التتار وصاهروهم . وقد أثار هذا الاجتماع مخاوف الناصر فجهز اليهم عسكرا من دمشق والتقى الفريقان بالطور فهزمت عساكر الناصر ، ثم عاود قتالهم وسار على رأس جيشه يخاف المماليك البحرية لقاءه وتركوا الأكراد وذهبوا الى بلاد الكرك، فأرسل الناصر الى المغيث يتوعده إن لم يسلم هؤلاء البحرية . وترددت الرسل بينهما وانتهى الأمر بأن اتفقا على أن يتسلم الناصر من المغيث طائفة المماليك البحرية وأن يبعد عن المغيث الشهرزورية^(٢) .

لما علم بذلك بيبرس هرب ومعه جماعة من البحرية الى الملك الناصر فأحسن اليهم ، وقبض الملك المغيث على من بقى عنده من المماليك البحرية وبعث بهم الى الناصر فحبسهم بقلعة حلب^(٤) . وقد ظلوا بها الى أن استولى التتار عليها وأخذهم هولاء كوي مع من أسرا الى بلادهم^(٥) .

(١) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٩٥ ؛ المقرئى : السلوك ص ٤١٠ و ٤١١

(٢) المقصود بها طور سيناء .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٤ ؛ والشهرزورية نسبة الى شهرزور وهى إحدى جهات كردستان . وكان بذلك الجهة جماعة من الأكراد ظلوا بها حتى استولى هولاء كوي على بغداد وتقدمت جيوشه شمالا نحو شهرزور وغيرها ، ففر الشهرزورية من وجه التتار الى الشام ومصر .

Enc. Isl. Art. shehrizur.

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ١٩٨

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر، ج ٥ ص ٣٧٨

يتضح لنا مما تقدم كيف ازداد نفوذ المماليك البحرية وعلی رأسهم بيبرس ، كما نرى من هذه المنازعات التي حدثت بينهم وبين المعز أيك كيف أن السلطة في مصر يتنازعها فريق من أمراء المماليك ، وكان لهذا أثره في حالة مصر الداخلية في ذلك الوقت فشغل المعز أيك وابنه من بعده عن إصلاح مرافق البلاد بالقضاء على هذه المشاغبات التي أثارها المماليك البحرية . وإن الناظر الى هذه المناقشة التي دارت بين علاء الدين سلطان السلاجقة الروم والأمير علم الدين سنجر الباشقردی على أثر الكتاب الذي أرسله المعز أيك الى سلطان الروم عندما التجأ اليه فريق من المماليك فراراً من غدر المعز أيك بهم ليقف على مبلغ العداء المستحكم بين المعز أيك والمماليك البحرية . وفي ذلك يقول المعز في كتابه الى سلطان الروم "البحرية قوم مناحيس أطراف لا يقفون عند الايمان ، ولا يرجعون الى كلام من هو أكبر منهم ، وإن استأمنتهم خافوا ، وإن استحلقتهم كذبوا ، وإن وثقت بهم غدروا ، فتحرز منهم على نفسك فإنهم غدارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمكروا عليك " .

كان لهذا الكتاب أثره في سلطان الروم ، فأرسل يستدعيهم فلما حضروا قال لهم : " يا أمراء ! ما لكم ولأستاذكم ؟ فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردی وقال : يا مولانا ! من هو أستاذنا ؟ قال : " الملك المعز صاحب مصر " . فقال الباشقردی : " يحفظ الله مولانا السلطان ! إن كان الملك المعز قال في كتابه إنه أستاذنا فقد "

أ ، إنما هو خوشدأشنا ونحن وليناہ علينا وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرنا س وأحق بالملكة . فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا فهربنا وتشتتنا في البلاد ونحن التجأنا اليك " (٢) .

لما علم قطز بما فعله التتار بالمدن الشامية وأنهم على وشك الهجوم على مصر جمع أمراء دولته وقال لهم " لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو ، والملك

(١) الخشداشية في اصطلاح عصر المماليك بمصر الأمراء الذين نشأوا عند سيد واحد فنبت بينهم رابطة الزمالة القديمة وتقابلها في الفرنسية (Comrades) المذكور زيادة .

(٢) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٣٩٣

المنصور صبي لا يعرف تدبير المملكة “ . والواقع أن الملك المنصور كان مستهترا بأمور الدولة ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تدخلت أمه في إدارة شئون البلاد فاضطربت الأمور وساعد ذلك قطز على الطمع في الوصول إلى سلطنة مصر ، فانتهمز فرصة خروج الأمراء للصيد وقبض على الملك المنصور وأخيه وأمهما واعتقلهم بقلعة الجبل وأعلن نفسه سلطانا على مصر (٦٥٧ هـ = ١٢٥٩ م) . فلما علم بذلك الأمراء أنكروا عليه هذا العمل ، فاعتذر إليهم بقوله ” إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ولا يتأتى ذلك بغير ملك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدد فالأمر لكم . أقيموا في السلطنة من شئتم “^(١) .

٢ - ظهور بيبرس على مسرح السياسة المصرية

ذكرنا أن المماليك البحرية فرّوا من المغيث حين رأوا منه عين الغدر بهم . ووصل بعضهم إلى مصر . وكانت هجمات التتار على البلاد الشرقية متوالية في ذلك الوقت كما كانوا ينتقلون بسرعة من بلد إلى آخر ، ذلك أن هولاكو على أثر سقوط بغداد في يده سار إلى ديار بكر ونزل على آمد يريد حلب ، ثم زحف على حران وأستولى عليها ، وأرسل ابنه سموط إلى الشام وعندما وصل إلى ظاهر حلب خرج إليه نائبها الملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين من قبل بن أخيه الملك الناصر ، فاقتتل الفريقان ودارت الدائرة على المسلمين ودخل التتار حلب^(٢) .

ولما بلغ الملك الناصر يوسف شروع التتار في الاستيلاء على حلب كتب إلى الملك المغيث صاحب الكرك والملك المظفر قطز صاحب مصر يطلب منهما نجدة ، وكان الأمراء متخوفين من غارات هولاكو ، فأشار أحدهم وهو الأمير زين الدين الحافظي بمداراته والدخول في طاعته . وهنا نجد موقفا مشرفا لبيبرس

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٢١٧ - ٢١٨

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٠

إذ أنه ما كاد يسمع حديث هذا الأمير حتى انقضض عليه وضربه وقال "أنتم سبب هلاك المسلمين" فشكاه الأمير إلى الملك الناصر . ولم يلبث المماليك بعد ذلك أن هجموا على الملك الناصر ففتر إلى قلعة دمشق ، ثم بادر إليه بعض الأمراء وأشاروا عليه بالخروج ؛ فوافقهم على ما أرادوا وخرج إلى المعسكر^(١) .

انتهاز بيبرس هذه الفرصة وسار إلى غزة ؛ وهناك راسل الملك المظفر قطز وأرسل إليه علاء الدين طيبرس الوزيرى يطلب منه الأمان ، فكتب إليه قطز بأن يفد إليه ووعده بالوعود الجميلة^(٢) .

وصل بيبرس مصر في ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ . فركب قطز للقائه وأنزله بدار الوزارة ، وأقطعته قلوب وأعمالها^(٣) وجعله قائد جيشه . وسرى ما فعله هذا القائد مع سيده الذى أعتقه من مخالب الموت وأغدق عليه نعمه .

في سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) أرسل هولاكو إلى مصر خطاب تهديد ووعيد إن هى امتنعت عن التسليم إليه والإذعان له . وقبل أن تتكلم عما فعله سلطان مصر إزاء رسل هولاكو نذ كر هنا خطاب هذا الطاغية لئرى منه كيف كان تجبر هؤلاء المغيرين واعتزازهم بقوتهم ووفرة عددهم وزهوهم بأنفسهم حتى أحرقوا من عداهم من الأمم وظنوا أنهم مانعتهم أسلحتهم وجيوشهم ولم يقدروا هزيمتهم فى أية معركة لهم وغاب عنهم أن الدهر قلب . واليك نص كتاب هولاكو كما ذكره كل من القلقشندى^(٤) والمقرئى^(٥) : " من ملك الملوك شرقا وغربا القائد الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٩ - ٤٢٠

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٠ (٣) ابن راصل : ج ٢ ص ٣٩٤ ؛ أبو الفدا : ج ٣

ص ٢٠٠ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٦ (٤) صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٣

(٥) السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٧ - ٤٢٨

هربوا من سيوفنا إلى هذا الاقليم ، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من كان بساطنانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطانا على من حل به غضبه . فلکم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمننا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسأموا إلينا أمرکم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود علیکم الخطأ . فنتجن مانرحم من بکی ولا نرق لمن شکی . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد فعليکم بالحرب وعلینا الطلب . فأی أرض تؤویکم ، وأی طریق تنجیکم وأی بلاد تمجیکم ؟ فما لکم من سیوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . فخیولنا سوابق وسهامنا خوارق وسیوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددننا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع والعسا کرلقتالنا لا تنفع ودعاؤکم علینا لا یسمع ... إلى أن یقول ” أسرعوا برّد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمی نحرکم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزرا ، ولا كافیا ولا حرزا وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادکم منکم خالية . فقد أنصفناکم إذ راسلناکم ، وأیقظناکم إذ حذرناکم ، فما بقی لنا مقصد سواکم . والسلام علینا وعلیکم وعلى من أطاع الهدى وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى “ .

لما وصل هذا الكتاب إلى قطز جمع أمراءه وشاورهم في الأمر — وقد أحذق بهم الخطر وتهاددهم هؤلاء التتار؛ فتردد بعض الأمراء أول الأمر في الخروج لملاقاة هذا العدو العنيد ومنازلته وذلك خشية منه ؛ وقر رأي قطز على قتل الرسل فقتلوا وعلقت رءوسهم على باب زويلة^(١) .

ولما كان يوم الاثنين ١٥ شعبان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) خرج قطز بعسكر مصر ومن انضم إليهم من عسكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبل

(١) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٢٩ ؛ Stanley Lane-Poole ،

A History of Egypt in the Middle Ages, p. 262.

قاصدين الصالحية؛ ولما بلغوها طلب قطز الأمراء وأمرهم بالرحيل فامتنعوا . فقال لهم "يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين^(١) " .

كان لهذا القول أثر في نفوس أمراء المماليك الذين أمتنعوا عن الرحيل من مصر لملاقاة التتار ، فلم يكذ قطز ينتهى من حديثه حتى آتفقوا جميعا على مهاجمة هذا العدو وإيقافه عند حدّه .

لم يدخل قطز في مخبرات مع العدو بشأن إبرام الصلح خشية أن ينضم ضعاف القلوب من أمرائه إلى المغول ، ولكنه أراد أن يقيم الدليل لهم بأنه يستطيع أن يقود جيشا قويا متحدا إلى الحدود . وقد تبددت سحب الإشاعات وزادت الحماسة حينما هزم المماليك بقيادة بيبرس حامية المغول في غزة ؛ ومن ثم واصل الجيش المصرى السير محاذيا الساحل نحو الشمال وضمن حياد الفرنجة في عكاء ، ثم عزم السير لملاقاة المغول فقابلوهم قريبا من بيسان في المكان المعروف «بعين جالوت»^(٢) حيث مزق الجيش المغولى شمل قوى المصريين ؛ على أن هرب المصريون قد أدّى إلى انتصارهم بسبب تعقب المغول للفرار منهم في شراذم متفرقة مما سهل على جيش المماليك القضاء عليهم . وقد وقع القائد المغولى «ككتبغا» صريعا في حومة القتال وارتد جيشه الذى انضمت اليه حامية دمشق التى ثار أهلها وذبحوا المسيحيين لتأمرهم على زوال الإسلام .

أعاد قطز الأمن الى نصابه في جميع المدن المخربة ، كما أعاد أمراء الأيوبيين على ولاية حمص وحماه على أن يدفعوا له الجزية ، وأقيمت الخطبة له في البلاد التى بين

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٢٩٤

(٢) بلدة بين بيسان و نابلس من أعمال فلسطين . ياقوت : معجم البلدان

حلب والفرات . وعند عودته من هذه المعركة التي نجت مصر وأعادت بلاد الشام وقع فريسة لذلك الحسد الذي طالما تعرض له قواد الجيش المنتصرون . وكان بيبس أقدر هؤلاء القواد وقد حال قطز دون تحقيق رغبته في ولاية حلب — وكان قد وعده بها — إلا أنه لم يف له بوعده وأعطاه لعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ^(١)، فكان ذلك الخلف مثيرا لمكان الضغينة والحقد اللذين كونا في نفوس بيبس وإخوانه على قطز منذ قتل الفارس أقطاي^(٢) ؛ فأضمرُوا السوء له وحدث بيبس جماعة من الأمراء في قتل السلطان^(٣) .

على أن قطز قد أخطأ حين رفض أن يمنح بيبس ولاية حلب ؛ فإنه لو كان قد منحه إياها لتمكن من إبعاد أكبر منافس له في سلطنة مصر . لكنه لم يترث في هذا الأمر فأخلف وعده واعتقد أنه بعمله هذا يضعف من شأن بيبس . غير أنه نسي أن المركز الذي كان يتمتع به بيبس في ذلك الوقت وخاصة بعد انتصاره على المغول وإخراجهم من دمشق وحلب وانتزاعه أكبر إمارات الشام من أيدي بني أيوب لا يقلل من شأنه جرمانه من إحدى الولايات وخاصة إذا علمنا أنه كان على رأس فريق من المماليك لعب دورا خطيرا على مسرح السياسة المصرية . وكان قطز نفسه يخشى بأسهم وقد اضطر أخيرا إلى مصافاتهم والاعتماد عليهم في صد ذلك العدو الخطير الذي اجتاحت البلاد الإسلامية وقضى على الخلافة العباسية . فهذه السياسة التي اتبعها هذا السلطان إزاء قائد جيشه أودت به في هوة سحيقة ؛ وكان الأجدر به أن يقرب إليه المماليك البحرية ويقطعهم الاقطاعات كما أقطع الأمراء المعزية وبذلك يتق شرمهم ويأمن جانبهم .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p.262.

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

(٣) ابن خلدون : ج ٥ ص ٣٨٠

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٣٥

ولا ضير إذا قلنا إن هؤلاء الممالك البحرية — وعلى رأسهم بيبرس — نسوا ما قابلهم به قطز من الخفاوة والاكرام وإتزاله لهم منزلة رفيعة أيام كانوا ثائرين بعد فرارهم الى الشام . نعم ! لقد نسوا هذا ولم يذكروا أن قطز هو الذى وهبهم الحياة بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من السيف، وأجمعوا أمرهم على اغتياله .

تمت المؤامرة بين الممالك البحرية وعلى رأسهم بيبرس على أن يستريحوا من قطز وترقبوه وهو فى طريقه الى مصر حتى إذا ما قارب الصالحية انشغل بالصيد ؛ فلما فرغ من ذلك طلب منه بيبرس بعض أسرى المغول فأنعم عليه قطز بامرأة من سبي التتار؛ فما كان من بيبرس إلا أن تظاهر برغبته فى تقييل يد السلطان وانقض عليه بالسيف وتبعه الآخرون بسيوفهم فأجهزوا عليه ؛ وكان ذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ^(١) .

وهكذا انتهت حياة ذلك الرجل العظيم وثأر أعداؤه لأنفسهم وبعد أن قتلوه تركوه ملقى على الأرض وعادوا شاهرين سيوفهم الى أن وصلوا الى عرش الملك بجاس عليه بيبرس وأخذ المملكة بالقوة على ما سياتى^(٢) .

(١) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٩٧